أبعـــاد عصمـــة الأنبيـــاء (ع)(*)

إن الهدف الأرفع من بعثة الأنبياء (ع) ــ كما نفهم ــ هو هداية الناس وتربيتهم وفق التعاليم والأوامر السماوية، وإن الناس، من جهتهم، يرون أنفسهم ــ وبحكم واجبهم الديني ــ ملزمين بتطبيق جميع الأوامر الصادرة عن النبي المبعوث فيهم.

فأي إنسان يستطيع أن ينال اعتماد الناس إلى هذا الحد بحيث يطبق الناس أوامره من أعماق قلوبهم وعن طيب خاطر دون مناقشة أو اعتراض؟

أهناك من يستحق مثل هذا الاعتماد غير من كان مسلحاً بالعصمة وبالفضائل في أوسع أبعادها؟

ولو لم يثق الناس مائة بالمائة بالمبعوثين من قبل الله، لم يتحقق الهدف من رسالتهم الذي هو تكامل الإنسانية، لأنه في حالة عدم عصمة الأنبياء في إبلاغ أوامر الله لا نأمن من انحراف المجتمع عن اتجاه التكامل.

ولو لم يتم حفظ الأنبياء من التلوث بجراثيم الذنوب ومن إصابتهم بالأمراض المعنوية، ولو لم يبتعدوا عن الدناءات النفسية تماماً، لكان من المحتمل دائماً أن يزلّوا أمام مظاهر العالم المادي الخداعة، وأن ينحرفوا تحت تأثير الجاه والمنصب، أو من أجل الأهداف الشخصية، وحتى لو كانوا مزودين بصفات إنسانية عالية، ومن المؤكد أن وجود مثل هذا الاحتمال يؤدي إلى وقوع أتباعهم في الشك والتردد بشأن تطبيق أوامر قادتهم.

هل يمكن نفي احتمال الكذب والخيانة والتحدث خلاف الواقع بشكل مطلق عمن يدعي النبوة والقيادة الشعبية، ويلزم الناس باتباعه من أجل أن يوصلهم إلى قمة التكامل في جميع أبعاد الحياة، فيما إذا كانت له سوابق في الكذب والانحراف والتورط في الذنوب؟

ثم هل من الممكن اعتباره دليلاً ومثالاً للفضيلة والنقاء؟

لا شك أن العقل والمنطق يجيبان بالنفي، لأنه لا يستطيع أحد أن يقبل باطمئنان حديث شخص بعنوان أنه وحي سماوي وقوانين إلهية إذا كانت في حياته صفحات غير مضيئة، وكان ــ قبل ادعائه النبوة ــ غير بريء من الذنوب وداعية للفساد وملوثاً بالسيئات الأخلاقية، ولو أنه تغير معنوياً بعد ذلك وثار على وضعه السابق. أيستطيع إنسان أن يمنع نفسه من الشك في سماوية دعوته وإلهية رسالته، لا سيما في المسائل التي لا دخل للتجربة في إثباتها؟

إذاً، أول شرط لا بد منه لتجلي الوحي هو الإخلاص الكامل والنظافة الباطنية المطلقة للأنبياء، ولا يتحقق حب الناس الملتهب للأنبياء وتعلقهم المفرط بهم النابع من أعماق أنفسهم إلاّ في ظل الإيمان بعصمة الأنبياء وكمالهم والاعتقاد بالله وأوليائه والقيم المطلقة.

إن تأثير السلوك العملي هو أوسع بكثير من تأثير الحديث والكلام. وإن لأعمال المربي وصفاته دوراً مهماً وأساساً في تربية أولئك الذين هم تحت نفوذه، وذلك لأنه في التربية تتغلغل الناحية العملية إلى أعماق الشخصية، بحيث لا يمكن مقارنة أثرها الحاسم بأثر الكلام والحديث.

إذاً، فمجرد احتمال ارتكاب ذنب واحد من قبل الأنبياء يؤدي إلى عقم تربية الناس ودفعهم للتكامل، الذي هو هدف الرسالات السماوية.

إذ كيف يمكن للملوث بالذنوب أن يطهر الناس منها؟

ومن لا يكون كاملاً من النواحي الروحية والأخلاقية لا يمكن أن ينجح في تربية الإنسان الكامل.

ومن هنا، يجب علينا أن لا نكتفي بدراسة أعمال المتصدين لمنصب النبوة وسلوكهم أيام النبوة، ولا نقتصر في البحث عن خصائصهم الروحية والأخلاقية خلال هذه الفترة المحدودة، وبشكل منفصل عن سائر أيام عمرهم، بل لا بد من توسيع مدى الدراسة.

إنه من الضروري أن تكون للأنبياء رابطة قوية ودائمة بمبدأ الوجود، وأن يكونوا مبرئين من الذنوب في جميع مراحل حياتهم.

إن الناس لا يمكن أن تنسى الخواطر المرة الحية في أذهانهم عن ذلك الشخص الذي كان إلى حد الأمس في عداد المنحرفين والفاسقين، وقد أنفق جانباً من عمره في الذنوب والمعاصي، وإنما هم بالتأكيد سوف يجرّون إلى ساحة البحث تفاصيل حياته الماضية، ويجلسون للتحليل والحكم عليها، وأما البدء بتحول روحي عميق وبعث معنوي واسع، فإنه لا يستطيع أن يغسل من الأذهان صور تلك المفاسد الماضية والانحرافات السابقة.

ولا ينبغي لنا أن نمر بشكل سطحي سريع خلال دراستنا لتأريخ الأنبياء على معرفة الأبعاد المختلفة لحياتهم قبل وصولهم إلى منصب النبوة، بل لا بد لكل باحث واع أن يفتش عن جواب واقعي لهذا السؤال:

لماذا لم يتهم الأعداء الحاقدون المتعندون الأنبياء بفساد الأخلاق وتلوث السيرة مع أنهم لم يتورعوا عن ارتكاب أية مؤامرة للحيلولة دون انتشار الدعوة الإلهية، ولم يترددوا في بذل كل الجهود اللاإنسانية في سبيل ذلك، حتى إنهم اتهموهم بالجنون والسحر.

والجواب هو أن شخصية الأنبياء كانت معروفة ومشرقة وباعثة على افتخار معاصريهم من الناس، بحيث تدفع هذه المفتريات السخيفة ــ فيما لو أطلقت ــ المجتمع لئلا يصدق الاتهامات الأخرى التي توجه إليهم، وحينئذ يخسر الأعداء كل جهودهم وتنهزم مقاومتهم.

ولو أن نقطة سوداء واحدة قد التصقت فعلاً بشخصية الرسل قبل بعثتهم لاستغلت مثل حربة حادة يطعنون بها قيمتهم ومركزهم الاجتماعي، بحيث تتزعزع عقيدة الناس بهم واعتمادهم عليهم، وعدم حصول ذلك، هو بنفسه، شاهد حي وناطق على أن أنبياء الله يتمتعون بالعصمة والنظافة المعنوية التامة، وانهم يتصفون بالقداسة حتى قبل بعثتهم.

وإذا التفتنا إلى هذه الملاحظة، وهي أن البيئة التي عاش فيها الأنبياء كانت حاشدة بظلمات المفاسد، ولم تكن بيئة تساعد على أن تنمو في جوّها التقوى والفضيلة، ولا تمنح

الجذور والبناء التحتي للحقائق الفطرية حركة ولا طاقة، عرفنا أن تلك الأرضية الأساس تستتبع جواً غير مساعد جداً بحيث يدفعهم ــ تبعاً للظروف الاجتماعية ــ ليتلونوا بلون الجو الملوث.

ولكنه على الرغم من هذا الوضع نجد أن الوعي والفضيلة والشرف الإنساني يولد في وسط أكثر المجتمعات انحطاطاً، وكأنه جوهرة تتلألأ على مفرق البشرية، وهذا بنفسه دليل واضح يبين لنا أبعاد شخصية الأنبياء وماهية عصمتهم الأخلاقية الكاملة.

ويستفاد من القرآن الكريم بوضوح أن الوصول إلى المنصب الرفيع للنبوة والإمامة لا يتم إلا في ظل البراءة من جميع ألوان الذنوب والسيئات الروحية والمعنوية.

يذكر القرآن الكريم أن النبي إبراهيم (ع) قد طلب من الله عز وجل أن يختار من ذريته أفراداً لمنصب الإمامة:

﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي...**﴾.

ولكن القرآن يجيب بصراحة ويعتبر الخلو من الظلم شرطاً مؤهلاً للإمامة والقيادة، فيقول:

﴿**قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[البقرة: ١٢٤].

وعلى هذا فإن من الشروط اللازمة لأنبياء الله ــ من وجهة نظر القرآن الكريم ــ اتصافهم بالعصمة وعدم التلوّث بالظلم، الذي يعتبر لوناً من التعدي على ساحة القدس الإلهية.

ويطرح أمامنا ها هنا إشكال، يقول: إذا كانت العصمة موهبة إلهية تستلزم صيانة الأنبياء من القبائح والذنوب، فهي إذن غير اختيارية، وتتمّ بلا شعور، ولا يعد هذا فضيلة لهم ولا يرفع من منزلتهم، وذلك لأن جهازهم الفكري يكون حينئذ قد خلق بشكل يمتنع عليه الذنب طبيعياً وبأمر من الله.

وجواب هذا الإشكال، أنّ العصمة مبنية تماماً على الإيمان والوعي، وهي تتجلى عملياً ولا تنفي الإرادة ولا الاختيار مطلقاً.

فالأنبياء بنظرتهم العميقة وفكرهم الصافي يدركون بشكل رفيع جلال ذلك المطلق سبحانه وقدرته المنبثة في كل أرجاء الوجود، وفي هذه المرتبة العالية تفيض قلوبهم وعقولهم وأنفسهم بحب الله، فكيف نصدق أن هذه العناصر الواعية الممتازة تتورط في الذنب أو تعصي أوامر الله محبوبها العظيم؟!

ومن ناحية أخرى، فإنهم على علم تام بنتائج الذنب المخيفة، وبهذه المعرفة الدقيقة فإنهم لا يديرون في خواطرهم حتى تصوّر الذنوب والسيئات.

صحيح أن كل لون من العلم بمفاسد الذنوب لا ينتج العصمة، ولكن عصمة رسل الله ناشئة من علم قوي كاشف عن الواقع، بحيث يشاهدون بقلوبهم عائد الذنب وآثاره بشكل واضح يجعل صدور الذنب منهم مستحيلاً.

فالطبيب مثلاً، لا يستعمل إناء ملوثاً بالجراثيم لأنه يعلم بالعواقب الخطيرة لهذا العمل.

وكذا المتسلقون للجبال، فإنهم ينفقون أعمارهم في هذا التسلق، لكن عقلهم ووعيهم لا يسمح لهم بإسقاط أنفسهم عمداً من فوق الجبل لكي يقدموا على مثل ذلك وينفذوه عملياً.

أتكون عصمة الطبيب ومتسلق الجبال من تلك الأعمال اللامعقولة عملاً بدون إرادة؟ وتركهم الشيء الذي يقضي عليهم عملاً غير اختياري؟ لا شك أن أولهما قادر على استعمال الإناء الملوث وعدمه، وثانيهما قادر على السقوط وعدمه، ولكن تجسّم النتيجة وعاقبة العمل أمام أعينهما أوصلت احتمال الإقدام عليه إلى درجة الصفر.

ومن هنا نستطيع إدراك علاقة العلم ــ الذي يمثل النواة للمعرفة الواعية ــ بالعمل الذي هو التجلي الخارجي لها، ونعرف أيضاً كيف تتحول الأفكار الذهنية الدقيقة العميقة إلى واقع عيني، وما هو موقع الإنسان بين هذه التأثيرات والتأثرات، وما هو موقفه من الأفعال والانفعالات الذهنية والخارجية؟

وفي الأنبياء تكون الرؤية العميقة لجميع تأثيرات الذنوب وما يترتب عليها من الغضب والعقوبة الإلهية واضحة، وهذا ما يصرفهم تلقائياً عن ارتكابها.

وإرادتهم الفولاذية أيضاً التي يحصلون عليها نتيجة لجهودهم وتضحياتهم، وتوجههم الدائم إلى مبدأ الوجود، وعدم الخوف من المشاكل والمصاعب التي تملأ طريق الحق وتقف في وجه استقرار العدالة، وبذلهم كل ما لديهم من أجل الفوز برضى الخالق تعالى، إنما هي عامل مهم في اتصاف رجال الله بالعصمة، فهم قادرون كغيرهم على القيام بالمعاصي، ولكنهم لا يستغلون هذه القدرة، وحتى تصور الذنب فإنه لا يقتحم أفكارهم الطاهرة النظيفة.

إن هذه العصمة الشاملة هي أثر مباشر لعلمهم الدقيق بعواقب الذنوب ومعرفتهم التامة لعظمة مقام الربوبية، وهي تدل على معنوية رفيعة وباعثة على الاعتزاز، مسيطرة على جميع الرغبات القوية في وجودهم لكيلا يتجاوزوا الحدود المعينة لهم أبداً.

(*) المقالة مقتبسة من كتاب "أصول العقائد في الإسلام" للسيد مجتبى الموسوي اللاري، بتصرف.